الفروق السيكلوجية
بين الأجناس البشرية
للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

عرضنا فى المقال السابق نظرية تقسيم الأسرة البشرية إلى أجناس رئيسية ، والمميزات الجسمية العامة لكل منها . وقلنا : إن وجود هذه الفروق الجسمية بين الأجناس لا يستلزم بالضرورة وجود فروق عقلية بينها ، فقد يتساوى اثنان فى نسبة الذكاء ، ويختلفان فى الصفات الجسمية الجنسية بأن يكون أحدهما زنجياً والآخر أوربياً (قوقازياً)

والتاريخ والواقع يثبتان أن النقاوة الجنسية لا توجد إلا بين جماعات منعزلة بحكم الطبيعة أو الاجتماع . فأمريكا خليط من كل الأجناس ، وآسيا الصغرى تواردت عليها أجناس مختلفة . ومصر غزاها الهكسوس والفرس والإغريق والرومان والعرب والترك والفرنسيون ، وامتزجت هذه الدماء قليلاً أو كثيراً بدم السكان الأصليين . وإذاً ، فقد انمحت إلى حد ما خواص الأجناس البشرية الرئيسية ، ولم يعد لعلماء النفس مجال للبحث العلمى التجريبى على أساس الجنسية ، اللهم إلا بين بعض الجماعات التى لا تزال تحتفظ بنقاوتها نسبياً كزنوج أمريكا والهنود الحمر

تعرض الأستاذ وُدْورث بإيجاز لموضوع الفروق الذكائية بين الأجناس فى كتابه : « دراسة الحياة العقلية » . وكان فى كل ما كتبه عن هذا الموضوع حريصاً حرص العلماء المدققين . وهو يحدثنا أن تجارب « أجريت » فى ولاية « أكلاهوما » بأمريكا الشمالية على تلاميذ المدارس الأولية الريفية ببعض المدن الصغيرة . وكان هؤلاء التلاميذ يمثلون ثلاثة أنواع جنسية وهى : هنود حمر خلّص ، وأمريكيون خلص ، وخليط من الدمين الهندى الأحمر والأمريكى . وقد اختُبِرَ ذكاء ثلاثمائة تلميذ من النوع الأول ، وأربعمائة من النوع الثانى ، وثلاثمائة من النوع الثالث . واستعملت فى هذه التجارب « المقاييس الجمعية » group tests فكانت النتيجة ما يأتى :

الهنود الحمر الخلّص : متوسط نسبة الذكاء ٧٣
الأمريكان الخلص : » » » ١٠٠
الخليط منهما : » » » ٩١

والمتأمل فى هذه النتيجة يرى أن نسبة ذكاء الهنود الحمر الخلص أقل بكثير من نسبة ذكاء الأمريكان الخلص ، الذين يمثلون مزيجاً من الأجناس الأوربية أو الجنس القوقازى . كما يرى أيضاً أن نسبة ذكاء الخليط من الجنسين هى نسبة وسط بين النسبتين السابقتين . فإذا علمنا أن البيئة المدرسية لهؤلاء التلاميذ واحدة جاز أن نستنبط أن هذا الفرق فى نسبتى الذكاء بين الهنود الحمر وبين الأمريكان الخلّص إنما يعزى للفرق الجنسى ، والأستاذ يقول فى حيطة : « على أنه يجب أن نذكر فى نفس الوقت أن هذه المقاييس إنما تناسب ثقافة التلاميذ الأمريكان الخلص ، ولذلك فالهنود الحمر يجدونها غريبة عليهم . هذا والتلاميذ الخليط أكثر تأثراً بالثقافة الأمريكية من الهنود الحمر » وليس معنى هذه النتيجة أن كل فرد من أفراد الهنود الحمر أقل ذكاء من كل أمريكى ، فالنتيجة تشير إلى المتوسط فقط ، وعلى هذا قد يوجد من بين الهنود الحمر الخلص من هو أكثر ذكاء من الأمريكان الخلص

وثمة تجارب أجريت على بعض الأطفال الزنوج فى جنوب الولايات المتحدة وأسفرت عن أن متوسط نسبة ذكائهم هو ٧٥. وفى مدينة ناشفيل فى شمال الولايات المتحدة أجريت تجارب أخرى على بعض الأطفال الزنوج ، وكان متوسط نسبة ذكائهم يعادل ٨٥ ولهذا الفرق بين نسبة ذكاء الزنوج فى الجنوب والزنوج فى الشمال مغزاه . فإن زنوج الشمال أصلهم من الزنوج سكان جنوب الولايات المتحدة وإنما هاجروا إلى الشمال لأنهم أكثر طموحاً وأقوى استعداداً على التكيف باختلاف البيئات من الزنوج الذين آثروا الإقامة فى الجنوب. وهذا يدل على أنهم أذكى من الزنوج المقيمين، ويفسر ما أظهرته التجارب من زيادة نسبة ذكائهم . ونعود فنسمع الأستاذ ودورث يعلق على نتيجة هذه التجارب بقوله : « إن ذلك الضعف الواضح فى نسبة ذكاء الأطفال الزنوج يمكن أن يعزى إلى الجنس ، أو إلى بيئتهم الثقافية الأولى غير المنشطة ، أو إلى خطأ فى الاختبارات نفسها . ولم نصل حتى الآن إلى رأى

جازم يعزو ضعف الذكاء إلى واحد بعينه من هذه العوامل الثلاثة »

تطورت كلمة « الجنسية » حتى أصبحت تستعمل فى الوقت الحاضر — كما فى جواز السفر مثلاً — بمعنى النسبة إلى الوطن السياسى الذى ينتمى إليه الفرد ، أو ما يقابل الكلمة الفرنسية Nationalité . وهذه الكلمة مأخوذة من كلمة Nation بمعنى أمة أو جماعة سياسية خاضعة لنظام حكم واحد مقرر ، على حين أن كلمة « الجنسية » العربية مأخوذة من « الجنس » التى يقابلها فى الفرنسية La race . ومن هذه المقارنة يظهر التساهل فى استعمال كلمة « الجنسية » بالمعنى السياسى فى اللغة العربية ، ودقة استعمال كلمة Nationalité أو ما يشبهها فى اللغات الأوربية . ولعل سبب هذا التساهل فى استعمال كلمة « الجنسية » هو أن الأصل أن الأمة أو الوحدة السياسية إنما كانت تتكون من أفراد ينتمون إلى جنس واحد ، فأطلق العام وهو الجنس على الخاص وهو الأمة مجازاً . وإلا فقد تتكون الأمة من عدة أجناس مختلفة كما ذكرنا

ذهب علماء النفس خطوة أبعد من بحث الفروق السيكلوجية بين الأجناس البشرية الرئيسية ، فقد رأوا أن الأمة الواحدة — ولو أنها تتكون من أجناس مختلفة — قد تحمل طابعاً خاصاً يميزها عن غيرها جسمياً وعقلياً وخلقياً . ذلك لأن وحدة الأمة السياسية إذا طالت عليها المدة ، واستقر السكان ، وقل الطارئون عليهم من الأمم الأخرى ، وربطهم لغة واحدة ، وثقافة واحدة ، وخضعوا لظروف مشتركة ، فإن هؤلاء السكان مختلفى الأجناس — كما فى مصر وأسبانيا مثلاً — يمتزج بعضهم ببعض بالتزاوج فتختلط الدماء ، ويتكون من أمشاجها المتباينة نوع جديد a new pattern ودم جديد ، نتيجة لهذا الاختلاط المستمر الكثير الذى قد يتغلب فيه جنس خاص ويسود . وبهذا تمتاز الأمة — بمرور الزمن وتعاقب أجيالها — بخواص جسمية وعقلية وخلقية قد تختلف عن خواص غيرها من الأمم وتختلف أيضاً عن خواصها هى قبل هذا الامتزاج والانسجام الجنسى « وقد حدث هذا الاختلاط الجنسي والامتزاج بالضبط فى كل الوحدات السياسية والأمم التى على ظهر البسيطة الآن . فكلها من غير استثناء نتيجة امتزاج عناصر جنسية مختلفة . وكل واحدة منها تكاد تصل إلى المرحلة التى تتميز فيها بخصائص أمّيّة (نسبة إلى الأمة) تجعل منها طرازاً جنسياً جديداً ، كأسبانيا ، وإيطاليا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وانجلترا ، وأمريكا . وترتيب الأمم هكذا إنما هو وفق لتطورها التاريخى وتكوينها الجنسى . ولو أن هذه الأمم استمرت على ما هى عليه الآن بضعة آلاف من السنين من غير امتزاج بأى عنصر آخر من الخارج لتكوّن من كل منها جنس جديد[1] »

ولا نريد أن نتعرض هنا للفروق الجسمية بين الأمم لأنها موضوع يطول شرحه من غير جدوى ، ولأنها تستدعى دراسة كل أمة أو وحدة سياسية على انفراد ، ومعرفة الخواص الجسمية والعضوية التى تمتاز بها . وإنما يهمنا أن نذكر بعض التجارب التى أجريت لمعرفة الفروق الذكائية بين بعض الأمم . وهنا يجدر بى أن أشير مؤكداً أن نتائج هذه التجارب ليست نهائية أو قاطعة لأنها ما زالت فى مرحلة النظريات ، فهناك صعوبات كثيرة تحول دون الوصول إلى النتائج النهائية ، منها تعذر وجود « عينات » ممثلة تمثيلاً صحيحاً لأفراد الأمم التى ندرس ذكاءها ، ومنها صعوبة وجود الاختبارات التى تلائم فى لغتها ووضعها عقليات الأمم المختلفة . وفيما يلى نتائج لتجارب أجريت فى أمريكا فى مقاطعة ماساشوستز على أطفال ولدوا بها ، وآباؤهم من أمم أوربية مختلفة ، وقد هاجروا إلى أمريكا طلباً للرزق . وهى تدل على متوسط نسبة الذكاء لأطفال كل أمة

أطفال آباؤهم من السويد	متوسط نسبة الذكاء	١٠٢
« « انجلز	« « «	١٠١
« « يهود	« « «	١٠٠
« « ألمان	« « «	٩٩
« « أمريكان	« « «	٩٨
« « لتوانيون	« « «	٩٧
« « إيرلنديون	« « «	٩٦
« « سلاف	« « «	٩٠
« « إغريق	« « «	٨٨
« « إيطاليون	« « «	٨٦
« « من كندا الفرنسية	« « «	٨٥
« « برتغاليون	« « «	٨٣

(١) صفحة ١٤٨ من كتاب Individual Differences, by Freeman

ويقول الأستاذ ودورث الذى اقتبسنا من كتابه هذه الأرقام « وهذه النتائج يجب ألا تؤخذ على أنها تدل قطعاً على الفروق الموجودة بين ذكاء الأمم التى يمثلها المختبرون . لأن أسباب الهجرة لها أثر فى اختيار نوع من الناس دون الآخر . فالإنجليز والسويديون جاءوا فى الغالب من طبقة مثقفة يبحثون عن أعمال تحتاج لثقافة أعلى من ثقافة تلك الأعمال التى ينشدها الإيطاليون أو البرتغال »

وقد حاول علماء النفس التغلب على صعوبة اللغة فى اختبارات الذكاء فاستخدموا « اختبار[1] الرسم المقنن » لمعرفة نسبة الذكاء عند أفراد يمثلون أمماً مختلفة . وهذه هى النتيجة :

أطفال آباؤهم يهود		متوسط نسبة الذكاء	١٠٦
« « اسكاندنافيا		« «	١٠٥
« « صينيون		« «	١٠٣
« « أمريكان		« «	١٠٠
« « يابانيون		« «	١٠٠
« « ألمان		« «	٩٩
« « أرمن		« «	٩٢
« « إيطاليون		« «	٨٨
« « مكسيكيون		« «	٨٧
« « هنود حمر		« «	٨٦
« « زنوج		« «	٨٣

هذه نبذة عامة عن الفروق الذكائية بين بعض الأمم ، وهى نتيجة تجارب ما زالت موضع بحث ونظر ، وسنعود لتحقيقها فى مقالات قادمة إن شاء الله .

(بخت الرضا — السودان) عبد العزيز عبد المجيد

(١) مقياس الذكاء بواسطة الرسم هو نوع من الاختبارات غير اللفظية يستعمل مع الأطفال من سن الرابعة إلى العاشرة ، وفيه يطلب إلى الطفل أن يرسم إنساناً ، وتعطى الدرجة على عدد الأعضاء المرسومة ، ونسبها وتناسقها .